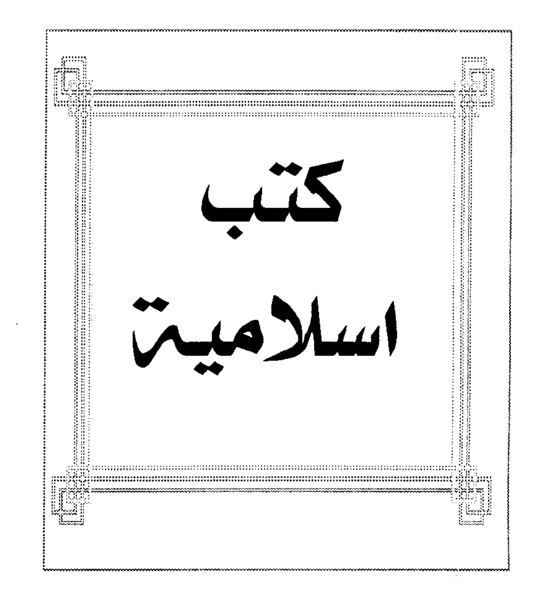
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة



الهجرة
وبناء الدولة الإسلامية

للدكتور عبد العزيز عزام

يصدرها : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة
العدد ١٦٦




الله
جل جلاله



بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعـــالى :

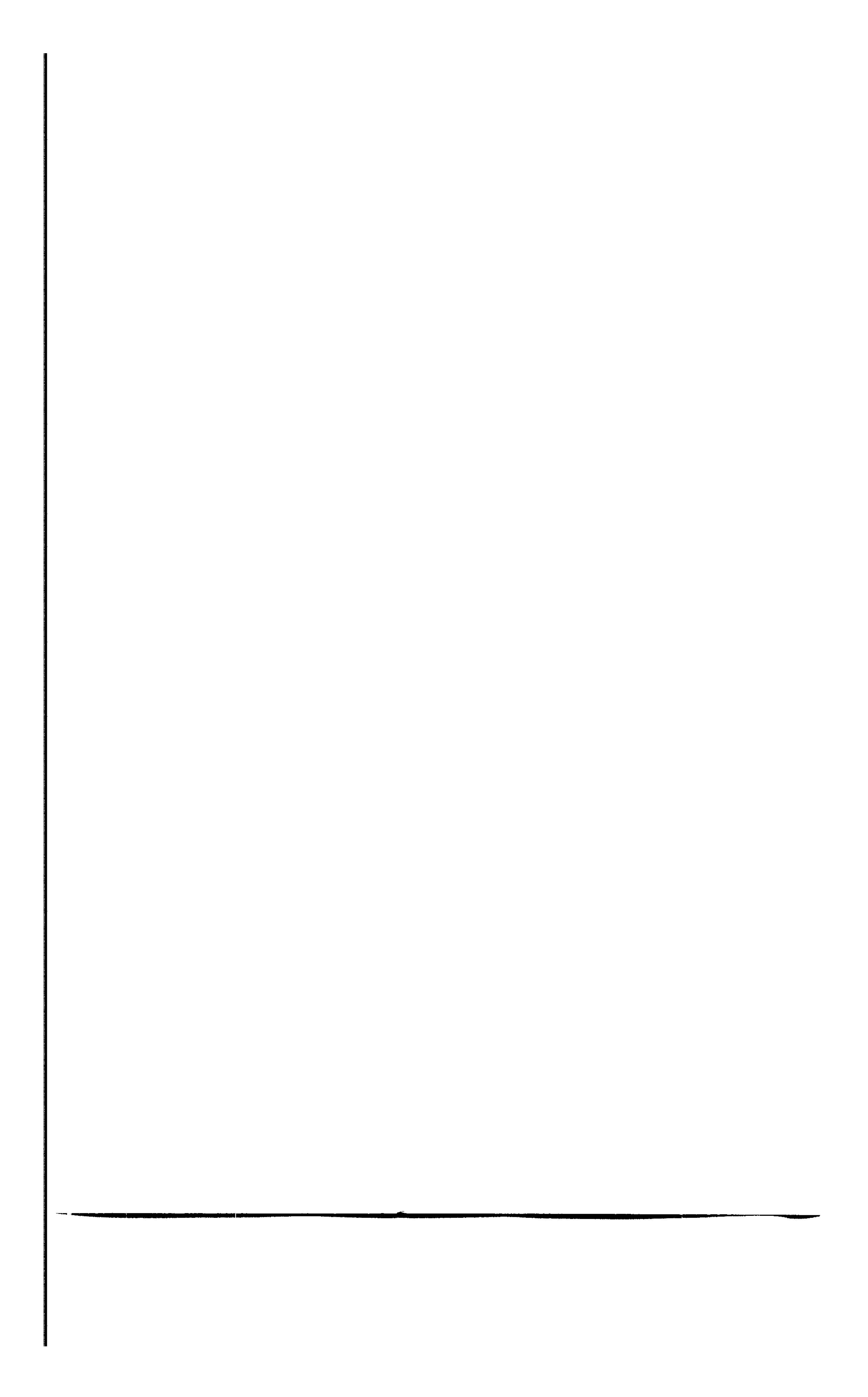
« الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم » .

(قرآن كريم)

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال غداة أخرجه قومه من مكة :

« والله انك لخير بلاد الله ، وأحب أرض الله الى الله ، ولولا أن قومك أخرجونى منك ما خرجت » .

(حديث شريف)



مقدمة

الهجرة النبوية الشريفة كانت وستظل معينا لأشرف المعانى وأسمى المبادىء وأرفع القيم التى تمنح المسلم حياة العزة والكرامة والمثل العليا والمبادىء الكريمة ، فالمسلم الحق يأنفة من الذل ولا يرضى بالحياة الدون ، وقد كتب الله له السيادة والعزة « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين[1] » .

وطبيعة الاسلام لا ترضى أبدا بالاستكانة والعيش الرخيص والأرض كلها وطن للمسلم الحر ، وقد نعى القرآن الكريم على قوم رضوا بالحياة الذليلة ، ولم يثوروا على الباطل والظلم، وآثروا السلامة على الهجرة وطلب الحياة العزيزة ، فقال جلت قدرته : « **ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا**[2] » .

(١) المنافقون آية : ٨ .
(٢) النساء آية : ٩٧ .

وقد حملت الهجرة فى تضاعيفها معانى التضحية ، والفدائية ، وآثرت العقيدة على الأهل والولد والمال والوطن ، وهيأت المسلمين مقاعد العزة والشرف ، والحرية ، والكرامة والبطولة، وجعلت المسلم الأول يهتف بقول الشاعر :

ولست أبالى حين أقتل مسلما　　على أى جنب كان فى الله مصرعى

ولسان حاله يقول :

انى خلقت لأحيا　　حتى يحين القضاء
ولى فؤاد لبيب　　يجول حيث يشاء
ان ضاقت الأرض دونى　　فما تضيق السماء

والهجرة النبوية لم تكن من أجل الذات ووقايتها من الأضرار المادية ، ولا من أجل الحصول على مغنم أفضل ، وانما كانت من أجل تحقيق مجتمع انسانى رفيع لا يخلد الى الأرض، ولا ينجذب نحو الهوى والغايات الدنيئة .

ولا يزال المسلمون يرون فى حادث الهجرة ، صورة مشرقة للتضحية فى سبيل الحق ، ومثلا أعلى للنضال الدائب فى نصرة العقيدة ، وجدير بهم أن يتخذوه شعارا فى جبين حقهم لازهاق باطل عدوهم وامتدادا لانتصارات الرعيل الأول فى الاسلام .

ومعنى ذلك أن الباب الى الهجرة مفتوح ، حيث يكون الموقف شبيها بالموقف الأول الذى تمت فيه الهجرة الأولى ، وحيث

يكون المؤمنون فى وضع يجب أن يفر أحدهم بدينه ، مخافة أن يفتن عليه ، وما أكثر أوضاع المؤمنين الشبيهة بهذا الوضع فى عالمنا المعاصر ، الذى طغت فيه المادية طغيانا جارفا ، فاعمت العقول والقلوب ، وأفسدت النفوس وقتلت الضمائر ، فصار الايمان شذوذا لا تتحمله بعض المجتمعات ، وصـــار المؤمنون يعيشون مأســـاة المآسى ؛ بشذوذهم عن بقية أبنـــاء المجتمع الذى يعيشون فيه .

ولنا فى رسول الله صلوات الله عليه وأصـــحابه الـــكرام الأبرار ، الأسوة والقدوة حيث هاجر هو وأصـــحابه من قبله ومعه وبعده من مكة أو من غيرها الى يثرب .. هاجروا الى الله ورسوله ، ولم يهاجروا الى دنيا يصيبونها أو متعة يستمتعون بهـــا .

والهجرة الى الله ورسوله هى الهجرة فى سبيل الرسالة ، وفى سبيل الحفاظ على القيم العليـــا والدعوة اليها ، وهى الهجرة الخالدة فى تاريخ الانسانية ، والهجرة التى يجازى عليها الله سبحانه وتعالى فى الدنيا والآخرة .

فلتكن الهجرة النبوية مصدر الهام لنا نحن المسلمين ، فنتخذ منها دروسا تنير لنـــا الطريق فى حياتنا وعزة أوطاننا ، فان الثبات على المبدأ والفناء فى سبيل المثل العليا هو الحياة والجهاد لمن أراد الحياة والجهاد .

لا يسلم الشرف الرفيــع من الأذى

حتى يــراق على جوانبــه الـــــدم

تلك سنة الله التى لا تتخلف أبدا ، ومن هنا اختار الفاروق عمر بن الخطاب الهجرة الشريفة لتكون مبدأ للتاريخ الاسلامى، لأنها فرقت بين الحق والباطل ، وكأنه رضوان الله عليه كان يملى على الأجيال القــادمة أن التفتوا الى أمجادكم فى الهجــرة ، واذكروها فى مستهل كل عام هجرى ، وسجلوا من عبرها دروس الحياة المؤمنة الخالدة ، فان الذكرى تنفع المؤمنين .

العالم قبيل البعثة :

تمهيـــد :

كان العالم قبيل البعثة المحمدية فى حالة من الفساد والظلم والانحلال يرثى لها ، فقد استبد الرؤساء والسادة بمن دونهم من الضعفاء ، وبالغوا فى اذلالهم ، وصرفهم عن الرشد الذى يقيم الانسان على الطريق التى سنها الله له .

« **انا هديناه السبيل** »[1] ليبلغ بسلوكها كماله ، ويصل على نهجها الى ما أعده الله له فى دنياه وأخراه .

فكانت دولة الفرس فى الشرق ، ودولة الرومان فى الغـــرب فى صراع دائم،وسجال مستمر ، وكان الزهو والترف والاسراف والتفنين فى الملاذ ، قد تجاوز الحد ، وحاول الرؤساء والسادة ، أن ينشئوا سحبا من الخرافات والأباطيل والأوهام ، ليقذفوا بها فى عقول رعاياهم علهم يستطيعون أن يخنقوا نور الفطرة ،

(١) الانسان آية : ٣ .

ويخفتوا صوت الحق الذى ينبعث من أعماقهم ، وغاب عنهم أنه لا يخبو أبدا مهما تراكمت سحب الفساد والضلال .

ولكى يتم لهم ما يريدون ، فقد أفهموا المغلوبين ، أن الدين عدو العقل ، وعدو كل ما يثمره النظر والتأمل ، وتغير الوضع وانعكس الطبع ، فكان يرى الدنس فى مظنة الطهارة ، والشره حيث تنتظر القناعة ، والدعارة حيث ترجى السلامة ، وظهرت مذاهب الاباحيين والدهريين فى شعوب متعددة ، ولم يبق الا شوارد من بقايا الحكمة الماضية السابقة آوت الى بعض الأذهان، ومعها مقت الحاضر ونقص العلم بالغابر . .

ولكن هذه الطبقة المستضعفة والمغلوبة على أمرها لم يفارقها الأمل فى أن النور الالهى الذى يخالط الفطر الانسـانية ، قد يظهر ، فيفتق الغلف التى أحاطت بالقلوب ، ويمزق الحجب التى أسدلت على العقول ، ويبشر بفجر جديد ، ينشر الخير وينير الطريق للقافلة الانسانية لكى تمضى الى غايتها المنشودة ومجدها التليـــد .

فاذا انتقلنا الى الأمة العربية ، وجدناها تموج وتضطرب ، ففى الجنوب كان المسيحيون واليهود ، يتنازعون السلطة .

وكانت الأجزاء الشـمالية من الجزيرة ، يتنازعهـا الفرس والروم . أما وسـط الجزيرة ، فقد كان بعيدا عن السـيطرة

الأجنبية ، وبعيدا عن الصراعات الدينية ، وكانت القبائل يغزو بعضها بعضا ، وينحر بعضها بعضا .

وكانت الحياة الدينية مضطـربة . فمن العرب من يعبـد الأصـنام ، وقليل منهم من ينكر عبادتها ، وكانت مكة مهـد الوثنيـة .

ولم تكن عبادة الأصنام مقصورة على العرب وحدهم ، بل ان بعض الأمم فى حياتها الأولى ، كانت على هذه العبادة ، وهذا هو الباعث الذى أدى بالديانة اليهودية الى تحريم اقامة التماثيل ونحتها ، حتى لا يعود اليها الموحدون مرة أخرى .

وهو نفس الذريعـة التى تذرع بها الاسـلام فيما بعد ، وبخاصة فى أيامه الأولى لتحريم هذا اللون من الفن .

وظل العرب على وثنيتهم على الرغم من ايمان الأمم المحيطة بهم بدعوتى اليهودية والمسيحية ، وكان لكل قبيلة ، صنمها الذى لا تشركها فيه قبيلة أخرى، ومن هنا تعددت الأصنام والأنصاب، بتعدد هذه القبائل حتى ضمت الكعبة فيما يقال ثلاثمائة وستين صنما وقت فتح مكة .

كانت الأصنام هى الصورة التى يتمثلونها للاله فى نظارهم فكانوا يعبدونها لتقربهم الى الله زلفى ، اذ كانت عقولهم فى

حال من البداوة والتأخر لا تسمو بهم الى المعنويات ، فيعبدون الها غير مرئى لهم ، ولا محس منهم •

وحين ارتقوا بعض الشيء ، جعلوها تمثل ملائكة الله التى يشفعون بها اليه ، لتقضى حوائجهم ، وتطمئن نفوسهم •

ومن هنا كانت السخرية اللاذعة التى جاءت بها الآية الكريمة فى قوله تعالى : « **الكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك اذن قسمة ضيزى** »[1] •

وهذا الرأى يؤيده قول الله تعالى : « ان الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى • مالهم به من علم ان يتبعون الا الظن ، وان الظن لا يغنى من الحق شيئا »[2] •

والوثنية هى الطور الأول الذى تمر به كل أمة فى بداوتها ، قبل أن تنتقل الى التوحيد ، وعبادة اله واحد •

لذلك رأينا الأمة العربية تستمسك بعبادة الأوثان والأصنام من دون الله ، لأنها تعيش فى بداوة تامة ، وفى عزلة عن الأمم الأخرى المحيطة بها •

---

(١) النجم آية : ٢٢ •
(٢) النجم آية : ٢٨ •

وأمة هذا شأنها لابد أن تعيش أمـــدا طويلا على الوثنية ، دون أن تتأثر بديانات أرقى ، وأن تقاوم دعوة التوحيد ، وتفخر بقوميتها ، وتعتز بما كان عليه الآباء والأجداد[1] « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون »[2] .

وبعض العرب آمن بالحنيفية ، وكان يطلق عليهم الحنفاء ، والحنفاء جمع حنيف وهو المائل الى الاسلام الثابت عليه ، والحنيف عند العرب من كان على دين ابراهيم عليه السلام ، ومع أن الحنيفة مذهب سهل مستساغ بالنسبة الى العرب ، الا أن الحنفاء لم يكونوا لأنفسهم هيئة روحية ذات سيادة .

وكان قصى جد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من الحنفاء ، وكان ينهى قومه عن عبادة الأصـــنام ، ويدعوهم الى عبادة الله تعالى ، وكذلك زيد بن عمرو بن نفيل وهو الذى قـــال :

أربـــا واحـــدا أم ألف رب أدين اذا تقســـمت الأمـــور
تركت اللات والعـــزى جميعا كذلك يفعـــل الرجـــل الخبير

يقول الشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » : ومنهم أى

---

(١) انظر : الدعوة التحريرية الكبرى للاستاذ محمد مصطفى عطا ص ١٥ .
(٢) الزخرف آية : ٢٣ .

الفلاسفة حكماء العرب ، وهم شرذمة قليلة ، لأن أكثر حكمهم فلتات الطبع وخطرات الفكر ، وربما قالوا بالنبوات •

والحق أن جزيرة العرب ، لم تكن بمنأى ، عن التفكير الدينى القوى ، انكارا وجحودا ، أو اثباتا وتأييدا •

فقد جاء فى كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » : وقديتبادر الى الذهن أن أولئك البدو : كانوا أهل جهالة وهمجية ، لبعدهم عن المدن ، وانقطاعهم للغزو والحرب ، ولكن يظهر مما وصل الينا ، أنهم كبار العقول ، أهل ذكاء ، واختيار ، وحنكة ، وأكثر معارفهم من ثمار قرائحهم ، وهى تدل على صفاء أذهانهم ، وصدق نظرهم فى الطبيعة وأحوال الانسان مما لا يقل عن نظر أعظم الفلاسفة •

والقرآن صريح فى أن الدعوة المحمدية ، امتداد لملة ابراهيم **« ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين • شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم • وآتيناه فى الدنيا حسنة وانه فى الآخرة لمن الصالحين • ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين »** (١) •

بل أضاف الى ما سبق التصريح به أن الراغب عن ملة ابراهيم قد سفه نفسه **ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه**

---

(١) النحل الآيات : ١٢٠/١٢٣ •

نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا وأنه فى الآخرة لمن الصالحين • اذ قال له ربه اسلم قال أسلمت لرب العالمين[1] » •

ويذكر ابن الكلبى أن ربيعة ومضر بقيتا على دين ابراهيم ، وكذلك معد[2] •

وقد استفاضت كتب التاريخ بذكر أربعة من هؤلاء الموحدين كانوا بمكة منهم ورقة بن نوفل ، وكان يمت بصلة القربى الى السيدة خديجة ، زوج النبى عليه السلام ، وهو الذى بشره بالرسالة : وثبت ايمانه بقوله : هذا هو الناموس الذى أنزله الله على موسى ، ليتنى أكون حيا اذ يخرجك قومك قال أو مخرجى هم ؟ قال : نعم •

لم يأت رجل بمثل ما جئت به الا عودى ، وان يدركنى يومك انصرك نصرا مؤزرا •

وكأنه بهذه الكلمات يتنبأ بأن الهجرة آتية لا ريب فيها ، وقد كان ، فحين صدع محمد بأمر ربه ، ودعا الى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأصنام ، لم يجد من المشركين أذنا صاغية ، أو قلوبا واعية ، بل وجد منهم الأذى والسخرية

---

(١) البقرة الآيتان : ١٣٠/١٣١ •
(٢) الأصنام ص ١٣ •

والاستهزاء ، ولكن ماكان ذلك ليفت فى عضدة أو يثنيه عن دعوته التى أرسل بها للعالمين **« يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا اله الا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورســوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلمــاته واتبعوه لعلكم تهتدون[1] »** .

وهدى الله به من هدى الى الايمان ، فكانت قريش تسوم هؤلاء الصائبين فى نظرها صفوفا متبياينة من العذاب والاضطهاد، وتمر الأيام ، والمسلمون يزدادون عددا ، وقادة الكفر يزدادون طيشا وغيا وحمقا .

ورأت الجاهلية أن الاسلام ينتشر على الرغم من محاولاتها الجمة لوقف ذيوعه ، واضطهاد أتباعه ، وأيقنت أن مواريثها البالية وأعرافها الفاسدة تتعرض لخطر داهم لا قبل لها به اذا لم تعمل عملا حاسما تقضى به على تلك الدعوة التى ســفهت أحلامها وعابت آلهتها ، فانطلقت مسعورة تؤلب القبائل وتدبر أمرها بليل .

وفعلا بدأ الكيد للاسلام ، ولرسول الاسلام من المشركين والمنافقين واليهود وغيرهم .. ولازال الاسلام والمسلمون هدفا للكيد والمؤامرات .

---

(١) الأعراف آية : ١٥٨ .

وما على المسلمين الا استمرار الجهاد فى سبيل الحق •

عن يزيد الأصم قال : سمعت معاوية بن أبى سفيان روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فيما قال : (لا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم الى يوم القيامة) [1] متفق عليه •

وروى أنس : أن رسول الله قال : (الجهاد ماض منذ بعثنى الله الى أن يقاتل آخر أمتى الدجال ، لا يبطله جور جائر ، ولا عدل عادل) • رواه أبو داود ، وحكاه أحمد فى رواية ابنه عبد الله[2] •

واذا كنا اليوم نواجه أعتى القوى الشريرة • فقدكانت دعوة الرسول بالأمس تواجه ألد الخصوم وأعتى الجبابرة ، فى معركة غير متكافئة لافى العدد ، ولا فى العدة ــ ولكنه ــ صلوات الله عليه ، وقف يجاهد ويصابر وما استطاعت هذه القوى الشريرة أن تستنزله عن قمته ، أو تصرفه عن دعوته •

لقد قاوممقاومة عنيدة ، وصمد صمودا باسلا ، وثبت فى وجه التحديات كلها يسخر منها ، ويهزأ بها ويتسامى بوجدانه

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٣ ص ٦٧ •
(٢) نيل الأوطار للشوكانى ج ٧ ص ٢١٣ •

الطاهر الى أفق الحق ليثبت فؤاده ، ويربط على قلبه ، ويمده بالعون والتأييد ..

وكانت هجرة الرسول صلوات الله عليه ، ايذانا بالجهـاد فى سـبيل الحـق . حتى تعلو كلمته ويعـز سلطانه ويتحول ، المستضعفون فى أرض الله قوة يذل لبأسها هامات أعداء الله .

الهجرة والجهاد

والحديث عن الهجرة لاينفك عن الجهاد ، فقد كانت الهجرة بأحداثها ، ووقائعها تمثل مرحلة هامة من مراحل الصراع الدائر بين الحق والباطل ، ولا نكون مجاوزين الحقيقة اذا قلنا انهـا قمة التضحية من أجل العقيدة ، وأنها أعطت البرهان الدامغ على أن العقيدة الحية الناشطة والمتحركة هى وحدها التى تصـنع الرجال ، وتضع تاريخ الأمم العظيمة .

انها التجربة الحية للمعاناة التى تفجرت بها ينابيع القـوة والألم وتلاقت فيها أشعة الايمان وظلمات الكفر ، وتقابل فيها يقين الارادة واضطراب الضعف البشرى ، ثم كانت العاقبة بعد ذلك للايمان الواعى واليقين الثابت والخلق الرصين .

وجدير بنا أن نذكر هؤلاء الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وأن نستلهم من كفاحهم وجهاد هموما ينير لنـا الطريق النضال فى معركة النصر أو الشهادة التى تدور رحاها ، وتتنوع أساليبها من جانب العدو الماكر المخادع ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .

لمحة من جهاد الرعيل الأول :

ولقد سجل الاسلاف الأولون ، أروع الأمثلة فى الجهاد وحب الاستشهاد ، وافتداء العقيدة بالمهج والأرواح،وكل عزيز لديهم، بدرجة فاقت كل حدود الوصف •

ففى مكة كان المسلمون قلة مستضعفة لا حول لها ولا قـوة أمام جبروت الطغـاة ومعسـكر المشركين ، ولكن هـذه القلة استطاعت أن تنتصر على الشدائد والخطوب بروحها ، وقـوة ايمانها ، وجلدها ، وصبرها حتى استطاعت أن تجعل من الموت نفسه نصرا باهرا وفوزا مبينا ، ذلك ان قوة الروح هى التى تتيح للجسد من القدرة على الجهاد والكفاح واحتمال المـكاره والنكبات ما يبدو وكأنه ضرب من المعجزات •

فهذه « سمية » أم عمار ، وزوج ياسر ، استطاعت بايمانهـا أن تتحدى أبا جهل ، وهى امرأة ضعيفة رقيقة ، فكانت وهى تحت العذاب ترد عليه بعنف كل عبارة يريد أن ينال بها من محمد ودعوته ، دون أن تخشى بأسه أو تضعف أمام قوته وجبروته ، فأذلت كبرياءه ، وأثارت حفيظته فعاجلها بضربة قاتلة سقطت بعدها شهيدة الحق الالهى ، وسجلت بذلك أروع صفحة خالدة من صفحات التضحية والفداء ، وصدق الجهاد والاستشهاد فى سبيل المبدأ والعقيـدة •

لم يكن فى استطاعتها أن تفعل غير هذا الاستشهاد لتحقيق النصر العظيم ، ولم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام فى تلك الظروف القاسية يستطيع أن يقدم عونا للمعذبين من أمثال بلال ، وعمار بن ياسر ، وياسر زوج سمية أول شهيدة فى الاسلام .

أقول ، لم يكن فى استطاعة الرسول ، أن يقدم لهؤلاء ، وغيرهم شيئا يخلصهم من هذا العذاب ، فكان اذا مر عليهم وهم يعذبون يقول لهم : [صبرا آل ياسر ، فان موعدكم الجنة] .

لم يكن عليه الصلاة والسلام يعدهم بالنصر القريب الذى يخلصهم من العذاب الذى يلاقونه ، والهوان الذى كاد أن يفتنهم عن دينهم ، بل كان يحثهم على الصبر حتى الموت ، فهو الذى يضع حدا لمحنتهم ، والجنة فى انتظارهم ينعمون فيها بما أعده الله للشهداء المجاهدين ، والأبرار المخلصين .

جاء خباب بن الارث ، وهو عليه صلوات الله وسلامه متوسد برده فى ظل الكعبة ، بعد أن لقى من المشركين عنتا وشدة ، فقال يا رسول الله . ألا تدعو لنا ألا تستغفر لنا ؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال :

قد كان من قبلكم يمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم ودم وعصب ، ما يصرفه ذلك دينه ، ويوضع المنشار على رأسه فيشق نصفين ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر

حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ، ما يخاف الا الله ، والذئب على غنمه •• ولكنكم تستعجلون] •

ولاقى الرسول والمسلمون فى مكة عنتا شديدا ، وتعرضوا لمختلف ألوان العذاب حتى أمست بالنسبة لهم بلد الهوان والحرمان ، فكان عليهم أن يدعوا ذلك البلد ، بعد أن أزور عنهم، وترفع عليهم ، وصير حياتهم فيه شقاء متواصلا ، واضطهادا قاسيا •

أول هجرة فى الاسلام :

ولما رأى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما يصيب أصحابه من البلاء وعدم قدرته على منع الأذى عنهم،قال لأتباعه: لو خرجتم الى أرض الحبشة ، فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم مخرجا مما أنتم فيه •

فخرج المسلمون من أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفرارا الى الله بدينهم ، وكانت هذه أول هجرة فى الاسلام[1] • ثم تلتها هجرة ثانية الى الحبشة أيضا وكانت ظروف المسلمين فيها أسوأ من

---

(1) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢١٣ •

سابقتها وأشد ، فقد ثارت ثائرة قريش وجن جنونها لما بلغهم عن النجاشى أنه أحسن جوار المسلمين وأكرم وفادتهم ..

ولم يسلم الرسول — صلى الله عليـه وسلم — من ايذاء المشركين .

يقول ابن اسحق : ولما هلك أبو طالب ، نالت قـريش من رسول الله من الأذى مالم تكن تناله منه فى حياة عمه أبى طالب، فخرج رسول الله ومعه زيد ابن حارثة الى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة منهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا منـه ما جاءهم به من الله عز وجل ، لأنهم كانوا أخواله .

فلما انتهى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الى الطائف، عمد الى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم ، وهم اخوة ثلاثة :

عبد ياليل بن عمرو ، ومسعود بن عمرو ، وحبيب بن عمرو، فجلس اليهم الرسول — صلى الله عليه وسلم — وكلمهم بما جاء له من نصرته على الاسلام والقيام معه على من خالفه من قومه .

فقال له أحدهم : منكرا ان كان الله قد أرسلك اننى أمزق ثياب الكعبة ، . وقال الآخر : أما وجـد الله أحدا يرسله غيرك ؟ . وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدا . لئن كنت رسولا من الله كما

تقول ، لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام •

ولئن كنت تكذب على الله لا ينبغى أن أكلمك •

فقام رسول الله من عندهم ، وقد يئس من مناصرة ثقيف ، وقد قال لهم : اذا فعلتم ما فعلتم ، فاكتموا عنى ، فلم يفعلوا ، بل أمروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس ، فجعلوا يرمونه بالحجارة حتى ان رجلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لتدميان ، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شج فى رأسه شجاجا •

وانتهى به المطاف الى بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة ، فعمد الى ظل شجرة من عنب فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران اليه ويريان ما لقى من سفهاء أهل الطائف ، فلما اطمأن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال :

اللهم اشـــكو اليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس • يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى • الى من تكلنى ؟ الى بعيد يتجهمنى ، أم الى عدو ملكته أمرى • ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى • أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا

والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو تحل على سخطك • لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم[1] •

هجرة الرسول كانت جهـــادا :

أثرت مبايعة الأنصار للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى قريش تأثيرا بعيد المدى • أليم الوقع • ورأوا أن ايذاءهم له ولأتباعه • على شدته وضراوته لم يحل دون المضى فى بث الدعوة، وانتشارها اذ أن كثيرا من الصحابة هاجروا بأمر الرســـول ولحقوا بالأنصار فى يثرب ، وتزايد عدد المسلمين فى المدينة ، وكانت لهم اليد العليا هناك وحين فطنت قريش للأمر ، حاولت أن ترد كل من استطاعت رده الى مكة لتفتنه عن دينه أو لتعذبه وتنكل به ؛ وبلغت من ذلك أنها كانت تحول بين الزوج وزوجه ، وأنها كانت تحبس من تستطيع حبسه ممن لم يطعها •

ورغم ذلك كله ، فقد ظهرت فى المسلمين المهــاجرين بطولات رائعـــة •

فهذا عمر بن الخطاب حينمـــا أراد الهجرة ، تقلد ســـيفه ، وتنكب قوسه[2] ، وجعل فى يده أسهما ومضى قبل الكعبة •

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٨٥ •

(٢) تنكب قوسه : القاه على منكبه •

والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعا متمكنـــا ثم أتى المقام فصلى متمكنا ، ثم وقف يخاطب القوم قائلا : شاهت الوجوه ، لا يرغم الله الا هذه المعاطس[1] • من أراد أن تثكله أمه أو ييتم ولده أو ترمل زوجته ، فليلقنى وراء هذا الوادى• يقول على بن أبى طالب : فما اتبعه أحد[2] •

وأقام رسول الله بمكة ينتظر الأذن من الله بالهجرة ، ولم يكن بمكة معه من المسلمين الا من حبس أو فتن ، الا عليـــا ابن أبى طالب وأبا بكر الصديق • وكان أبو بكر كثيرا ما يســـتأذن الرسول فى الهجرة فيقول اه الرسول : لا تعجل ، لعل الله يجعل لك صاحبا ، فكان أبو بكر يطمع فى أن يكون ذلك الصاحب هو رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

وكانت قريش تحسب كل حساب لهجرة النبى ، فهم يخشون على أنفسهم وتجارتهم اذا انتقل محمد الى يثرب ، اذ يكون فى استطاعة المسلمين أن يقطعوا عليهم طريق التجـــارة ، وأن يجيعوهم كما فعلوا بالرسول وأصحابه فى مكة حين وضـــعوا الصحيفة بمقاطعتهم واكرهوهم أن يلزموا الشـــعب[3] الذى مكثوا فيه محاصرين محاصرة شديدة ثلاثين شهرا •

---

(١) المعاطس جمع معطس بزنة مجلس وهو : الأنف ، وارغامها الصاقها بالرغام وهو التراب وكنى بذلك عن الاهانة والذل •
(٢) الرياض النضرة فى مناقب العشرة : جـ ١ ص ٢٥٩ •
(٣) الشعب الطريق بين جبلين •

مؤامرة دنيئة :

وحتى لا يفلت منهم الرسول ، ويلحق بأصحابه ، ويكونون هناك جبهة قوية تهدد قريش ، فانهم حاولوا منعه من الخروج من مكة وحتى لو حاولوا منعه ، فانهم معرضون لمثل ذلك الأذى من جانب اليثربيين دفاعا عن نبيهم ورسولهم فلم يبق الا أن يقتلوه ليستريحوا من كل هذا الهم الذى يلازمهم ولكنهم ان قتلوه طالب بنو هاشم وبنو المطلب بدمه وأوشكت الحروب الأهلية أن تفشوا فى مكة ، فتكون شرا عليها مما يخشونه من ناحية يثرب[1] .

فاجتمعوا فى دار الندوة . للنظر والتشاور فى ذلك الأمر الذى اقض مضاجعهم وروعهم . وبعد التشاور وتبادل الرأى اتفقوا على أن يختاروا من كل قبيلة شابا شجاعا ، ويتحين هؤلاء الشبان الفرصة فيضربونه ضربة رجل واحد . وبذلك يتفرق دمه بين القبائل . فلا يستطيع بنو عبد مناف أن يثأروا له . ويقبلوا الدية وتستريح قريش من هذا الذى بدد شملها . وفرق قبائلها شيعا ، وباتوا يحسبون أن أمر محمد قد فرغ منه ، وأنه بعد أيام سيوارى وتوارى دعوته التراب .

« ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين »[2] .

---

(1) حياة محمد ص ٢٠٩ .
(2) الانفال آية : ٣٠ .

روى أحمد فى مسنده عن ابن عباس رضى الله عنه قال :

تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم ، اذا أصبح فاثبتوه بالوثاق ، يريدون النبى — صلى الله عليه وسلم — وقال بعضهم: بل أخرجوه ، فأطلع الله نبيه — صلى الله عليه وسلم — على ذلك ، فبات على رضى الله عنه على فراش رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، وخرج النبى — صلى الله عليه وسلم — حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه النبى — صلى الله عليه وسلم — فلما أصبحوا ثاروا اليه • فلما رأوا عليا رد الله مكرهم • فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدرى ، فاقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا فى الجبل فمروا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا : لو دخل هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاث ليال[1] •

وجاء فى رواية أخرى أن فتيان قريش ، انطلقوا فى كل مكان ومعهم أسيافهم حتى التقوا بأحد الرعاة فسألوه عنهما فأجاب « قد يكونان بالغار ، وان كنت لم أر أحدا منهما » وسمعه أبو بكر فتصبب عرقا وخاف أن يقتحم الباحثون الغار عليهما • فأمسك أنفاسه ، وبقى لا حراك به وأسلم لله أمره • لا خوفا

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٠٣ •

على نفسه ، ولكن اشفاقا وخوفا على النبى ــ صلى الله عليــه وسلم ــ وقد صرح بذلك حين قال يا رسول : ان هلكت أنا فانما أنا فرد ، وان هلكت أنت هلكت الأمة .

وأقبل بعض القرشيين يتسلقون الى الغار ثم عاد أحــدهم أدراجه فسأله أصحابه : مالك لم تنظر فى الغار ؟ فقــال : ان عليه العنكبوت من قبل ميلاد محمــد ، وقــد رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار فعرفت أن ليس أحد فيه . ويزداد أبوبكر خوفه فيقترب من صاحبه ويلصق نفسه به . فيهمس محمد فى أذنه « لا تحزن ان الله معنا » .

وفى رواية : ان أبا بكر لما شعر بدنو الباحثين قال هامســا « لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا » فأجاب النبى :

يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما[1] .

وفى مطاردة قريش لرسول الله لقتله ، وفى قصة الغار هذه **نزل قوله تعالى : « واذ يمــكر بك الذين كفروا ليثبتــوك أو يقتلــوك أو يخرجــوك ، ويمكرون ، ويمــكر الله ، والله خير المــاكرين »[2] .**

---

(١) الروض لأنف : جـ ١ ص ٤ .
(٢) الأنفال آية : ٣٠ .

وقوله : « **الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحـزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنوده لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم** »[1] .

وترك المسلمون مكة وطنهم ، وهى أشـد ما تكون حبا الى قلوبهم ، فهم قـد ألفوا حرمها ، وأرضـها ، وسـماءها ، وفيها دورهم ، وأموالهم ، ولكنهم **ينزلون عن ذلك كله فى زهد وأنفه ، حينما أحسوا بأن الاسلام مضيق عليه** ولابد له من قاعدة للانطلاق ، ولابد من التجمع لتكوين مجتمع جديد .. ولم تكن الهجرة هينة على نفوسهم ، فهذه السيدة عائشة رضى الله عنها تقول [لولا الهجرة لسكنت مكة ، فانى لم أر السماء أقرب الى الأرض منها بمكة ، ولم يطمئن قلبى ببلد قط ما طمأن بمكة ، ولم أر القمر بمكان أحسن منه بمكة] .

بل ان الحنين والحب للوطن قد بلغ مداه فى قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنراه يعبر عن الشوق المتدفق ولوعة الفراق لهذا البلد الطيب الذى ملك عليه أقطار نفسـه ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو واقف على راحلته بالحرون غداة أخرجه قومه ، وقد نظر الى مكة وقال « والله انك لخير بلاد

(1) التوبة آية : ٤٠ .

الله ، وأحب أرض الله الى الله ، ولولا أن قومك أخرجونى منك لما خرجت » •

ولقد كان لكل نبى ورسول صناعة فى الدنيا ، يأكل منها عيشه ويسعى بها فى الأرض بخلاف الدعوة التى أرسله الله بها •

فقد كان آدم عليه السلام ، حراثا زراعا ، وادريس كاتبا وخياطا فهو أول من خط وخاط ، وكان نوح نجارا ، وكان هود وصالح تاجرين ، وكان ابراهيم عليه السلام يعتنى بالزراعة ، وكان اسماعيل قناصا ، واسحاق راعيا ، ويوسف وزيرا ، والياس نساجا ، وسليمان يعمل القفف والمقاطف ويبيعها رغم ملكه الذى هو فيه • ومحمد ــ صلى الله عليه وسلم مجاهدا[1] •

اذن فصناعة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ هى الجهاد فى سبيل الله ونعمت الصناعة ، وهذا هو موقع الهجرة من الجهاد ومن هنا كان الحديث عن الجهاد له أوثق الصلات بموضوع الهجرة •

التعريف بالجهاد :

الجهاد مأخوذ من المجاهدة ، وهى المقاتلة لاقامة الدين ، وهذا هو الجهاد الأصغر •

أما الجهاد الأكبر ، فهو مجاهدة النفس البشرية • فالجهاد ضربان : جهاد أكبر ، وهو جهاد النفس ، وجهاد أصغر وهو

---

(١) محاضرات الأوائل ، نقلا عن مجلة منبر الاسلام السنة ٣٢ العدد ١ ص ١٧٦ •

جهاد السيف • وعلى ذلك يكون الجهاد فى اللغة هو مقـاومة العـدو •

ولقد فرض الجهاد على المسلمين لنصرة دين الله بعد وجود مقتضياته من قبل العدو • ولا يجوز للمسـلمين الاعتداء على الشعوب غير الاسلامية بدون مسـوغ ، الا اذا كانت هذه الشعوب تعمل ضد الاسلام • أو تستعد للهجوم عليه فمن الضرورى الوقوف فى وجه هذه الشعوب وردها عن قصدها[1] اذن يكون الجهـاد ضرورة من ضرورات رفعـة الحق ومنع الظلم ، وهو لهذا فريضة من فرائض الاسلام به تعلو كلمة الله ، وترتفع راية الحق ، وتنطلق كلمة الايمان فى آفاق الدنيا •

والايمان بالله أساس للجهاد فى سبيل الله ، والايمان بالحق مقدم على الدفاع عنه • والمسلم الذى يستحق النصر على عدوه هو الذى يحقق انتصارات فى المعركة الذاتية بينه وبين نفسه ، وصدق رسول الله — صلى الله عليه وسـلم — اذ يقول : (المجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله) •

ولذلك كان جهاد النفس أول وأعلى مراحل الجهاد ، وكان فرض عين لا يسقط عن أحد ،فيه يصلح الانسان للحياة ، ويكون صالحا ونافعا للمجتمع •

فاذا انتصر الانسان على نفسه ، وعالج أمراض قلبه ، وكان مسلحا بقوة الايمـان وأخلص لله فى السر والعلن ، وكان من

---

(١) الحرب فى الاسلام للاستاذ توفيق على وهبه ص ١٣ . طبع المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

الذين يتقون الله ويخشون جلاله ويخـافون مقامه ، كان فى منجاة من الهوى ، ولم يكن للشيطان عليه سبيل قال تعالى : « ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون »[1] .

وهذا هو الجهاد الأكبر ، الذى يعتبر المحور الأساسى لكل جهاد ، ومن ثم يبدو واضحا معنى قول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم : **(الجهاد ماض الى يـوم القيامة)** لأن الحق والباطل فى صراع دائم ومستمر الى يوم القيامة ، سواء فى داخل النفس أو خارجها .

أما عن الجهاد الأصغر ،فان له ضروبا كثيرة ، وأنواعا متعددة، وليس قاصرا على خوض المعارك ، وضرب المدافع ، واشتجار السيوف واستقبال الحتوف ، فليس ذلك الا ضربا واحدا من ضروب الجهاد الكثيرة التى بينها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بقوله : (جاهدوا المشركين بأموالـكم ، وأنفسـكم وألسنتكم)[2] .

فمن الجهاد الجهاد بالنفس ، وفيه يقول الله تبارك وتعالى : **« ان الله اشـترى من المؤمنين أنفسـهم وأموالهم بأن لهم الجنة .. »**[3] وجهاد بالمال وفيه نزل قول الله تعالى : **« واتقوا**

---

(١) الأعراف آية : ٢/١ .
(٢) رواه النسائى والترمذى وقال حديث حسن . وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم وقال صحيح الاسناد .
(٣) التوبة آية : ١١١ .

الله واعلموا أن الله مع المتقين ، وانفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ٠٠ »(١) وليس المراد بالتهلكة فى هذا السياق هى المخاطرة بالنفس فى القتال ومدافعة الأعداء ، وانما التهلكة ، ترك الجهاد والاشتغال باصلاح الأموال •

روى الترمذى عن أبى حبيب عن أسلم أبى عمران قال : (كنا بمدينة الروم ، فأخرجوا الينا صفا عظيما من الروم ، فخرج اليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر ، وعلى أهل مصر عقبة ابن عامر ، وعلى الجماعة فضالة بن عبيد ، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم ، فصاح الناس وقالوا : سبحان الله ! يلقى بيديه الى التهلكة •

فقام أبو أيوب الأنصارى فقال : يأيها الناس ، انكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل ، وانما نزلت الآية فينا معشر الأنصار لما أعز الله الاسلام وكثر ناصروه ، فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها ، فأنزل الله على نبيه يرد به ما قلنا « **وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة** » • **فكانت التهلكة** الاقامة على الأموال واصلاحها ، وترك الغزو • ومازال أبو أيوب شاخصا فى سبيل الله حتى دفن بأرض الروم(٢) •

وأما الجهاد الثالث والأخير ، فهو جهاد اللسان ، لقوله تعالى : « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن** »(٣) وهذا اللون من الجهاد يتمثل

---

(١) البقرة آية : ١٩٥ •
(٢) الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله القرطبى ج ٢ ص ٣٦٢
(٣) النحل آية ١٢٥ •

فى الدعوة الى الله ، والتمكين للحق والخير ، ونشر الفضيلة ، ومحاربة الرذيلة بالحكمة والموعظة الحسنة •

قال تعالى : « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين ، ولا تستوى الحسنة ولاالسيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »(١) •

وابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الأديان ، ولقى من أعداء الله أشد ما يلقى حق من باطل ، فأوذى الداعى الأول صلوات الله وسلامه عليه ، بضروب الايذاء وأقيم فى وجهه ما كان يصعب تذليله من العقبات لولا عناية الله •

وعذب المستجيبون له وحرموا الرزق وطردوا من ديارهم وصودرت أموالهم ، وسفكت دماؤهم ، ولكن تلك الدماء التى أريقت فى سبيل الله كانت عيون العزائم تنفجر من صخور الصبر يثبت الله بمشهدها المستيقنين ، ويقذف بها الرعب فى أنفس المرتابين •

وكانت الهجرة الكبرى ضربا من ضروب الجهاد والاعتصام بالحق والاستعلاء على الدنيا بأسرها ، اذ ترك الرسول والمسلمون الأهل ، والوطن ، وضحوا بالمتاع الزائل فى سبيل الدعوة والمبدأ ، وهاجر معه الصديق رضى الله عنه ، وتحمل معه المشاق ، وافتداه بنفسه وماله •

---

(١) فصلت آية : ٣٣/٣٤ •

تقول أسماء بنت أبى بكر الصديق : لما خرج رسول الله ، وخرج أبو بكر معه احتمل أبو بكر ماله كله ، وقد بلغ خمسة أو ستة آلاف ، فانطلق بها معه .

قالت أسماء : فدخل علينا جدى أبو قحافة ، وكان قد ذهب بصره ، فقال : والله انى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه . قلت : كلا يا أبت ، انه قد ترك لنا خيرا كثيرا . فأخذت أحجارا فوضعتها فى كوة[1] — فى البيت الذى كان أبى يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوبا ثم أخذت بيده فقلت : يا أبت ضع يدك على هذا المال ، فوضع يده عليه . فقال : لا بأس ان كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ لكم .

تقول أسماء : ولا والله ما ترك لنا شيئا ولكنى أردت أن أسكن الشيخ بذاك[2] .

لقد حاول عليه السلام أن يواجه جماعة قريش بكل ما كان يملك من قوة الخلق وقدرة على الصبر ووضوح الرؤية وأصالة فى العقيدة .

ولكن مكابرة هذه الجماعة المشركة وضعته أمام أحد موقفين لا خيار له معهما . فاما أن يستسلم للشرك فى جموحه وعناده ، واما أن يهاجر بحثا عن أرض أخرى وشعب آخر يجد عندهما من الوعى ومن الاستعداد للفهم مالم يجده عند جماعة قريش ،

(١) ثقبة فى الحائط .
(٢) سيرة ابن هشام : جـ ٢ ص ٣٣٨ .

ومن الطبيعى أن يختار الموقف الثانى فيصدع بأمر الله ، ويقرر الهجرة اليه فى أرض جديدة وجماعة جديدة .

والجدير بالذكر أن الهجرة الكبرى قد سبقت بهجرتين جانبيتين أريد بهما أن تكونا مخرجين من المآزق التى كان المسلمون يجدون فيها أنفسهم بسبب من تعنت قريش ومغالاتها فى اضطهاد الفئات المؤمنة .

وقد أراد الله سبحانه وتعالى فى سابق علمه أن تكون الهجرة الكبرى التى تغيرت بها أقدار المسلمين ، ووضعت بها أحجار الأساس لدولة الاسلام الفتية الى أرض عربية وشعب عربى ، وهى ارادة متفقة مع سنن الله فى خلقه .

ان احتمالات الوحدة فى العمل والتعاون بين الفئات المهاجرة وبين الشعب الجديد تكون أكثر توافرا حين تشد الفريقين اللغة المشتركة والعقلية المتقاربة والجغرافية الواحدة .

ولذا فقد صدر الأمر الالهى ونزل به الوحى الى النبى — صلى الله عليه وسلم — أن اخرج من بلدك مكة الى حيث تجد حظا أوفر من النجاح وقوما أكثر استعدادا لتقبل رسالة الاسلام[1] .

---

(1) العقيدة الناشطة فى هجرة النبى للأستاذ رمضان لاوند مجلة الوعى السنة الثانية منه العدد ٨٥ .

مراحل الجهاد

وقد قسم الفقهاء الجهاد الى مراحل ثلاث :

المرحلة الأولى : فى مكة وقبل الهجرة ، والراجح أنه لم يشرع فيها قتال ، بل ان بعض الفقهاء قال انه كان محرما فى هذه الفترة ، والذى كان مشروعا ، هو جهاد الصبر ، والمصابرة على الشدائد والأهوال .

وفى هذه المرحلة أصاب الرسول والمسلمون معه ما أصابهم من البأساء والضراء ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا بل صابروا ، وقابلوا الاساءة بالاحسان ، والظلم بالعفو والصفح الجميل .

وذلك ، لأن الاسلام فى تلك الفترة كان قليل الرجال بالنسبة الى المشركين فقد كان المسلمون فى أول أمرهم ضعفاء العدة والاستعداد للمقاومة والنزال ، كما كان أكثر أتباع الدعوة من ضعفاء المسلمين ، من الأرقاء والعبيد ، وكان الاحرار منهم مضطهدين من قومهم . ولم تنشأ بعد الدولة الاسلامية التى

تتيح لهم تكوين الجيش المحارب القوى الذى يحقق لهم النصر . « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** »[1] .

فلم يكن القتال مأذونا فيه لذلك ، وانما كان سلاحهم الصبر والمصابرة والدعوة الى الله بالحكمة والسداد وقوة الحجة والمنطق .

وفى ذلك يقول العلماء ، انه لم يؤذن لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — قبل بيعة العقبة فى الحرب ، ولم تحل له الدماء ، وانما أمر بالدعاء الى الله ، والصبر على الأذى ، والصفح عن الجهل مدة عشرة أعوام ، لاقامة حجة الله تعالى عليهم ، ووفاء بوعده الذي امتن به بفضله فى قوله : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »[2] فاستمر الناس فى الطغيان ، وما استدلوا بواضح البرهان .

وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم عن بلادهم ، فمنهم من فر الى أرض الحبشة ، ومنهم من خرج الى المدينة ، ومنهم من صبر على الأذى[3] .

وهذا القول يعزز رأى من يقول من المؤرخين : ان الجهاد شرع قبل الهجرة ، ولكن لم يؤذن فيه بالقتال الا بعد الهجرة

---

(١) الأنفال آية : ٦٠ .
(٢) الاسراء آية : ١٥ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ ١٢ ص ٦٩ .

التى كانت بداية لمرحلة جديــدة هى مرحلة الجهاد الفعلى ، والاعداد لملاقاة العدو الذى يقف بالمرصاد فى وجه الدعوة •

فتكون الهجرة عملية انسحاب حربية لاتمام اعداد الجيش المحارب • وهذه الخطة من خطط الدفاع يطلق عليها فى العصر الحديث ، الهجوم المضاد[1] •

وفى هــذا أبلغ رد على بعض المستشرقين الذين يفسرون التاريخ الاسلامى بروح لاهوتية ، وتفكير مغرض ، فيزعمون أن هجرة الرسول وخروجه من مكة ما كانت الا هربا وايثارا للنجــاة •

وهو زعم باطل ، فان الهجرة بترتيبها وأهدافها تعد صفحة مشرقة من صفحات التضــحية والمغامرة والبطولة • وضعت خطتها بتدبير محكم خلال عامين وكانت نقطة ارتكاز للجهاد ، والاعتماد على القوة فى تحطيم الطغيــان وجبروته بعد أن استنفذت الدعوة كل أســاليب الهداية والموعظة الحسنة فى اقناع أولئك الطغاة وردهم الى الحق •

المرحلة الثانية من الجهاد : وهى ما بعد الهجرة التى كانت بداية لمرحلة جديدة هى مرحلة الجهاد والقتال لاولئك المعتدين

(١) مع ذكريات الهجرة والجهاد للدكتور نصر فريد واصل — مجلة منبر الاسلام السنة ٣٢ العدد الأول •

الذين أصروا على العناد ومقاومة الدعوة ، والعمل على اخمادها وكان آخرسهم أطلقوه فى وجه الدعوة تآمرهم على قتل الرسول فجاء الاذن الالهى من الله للمؤمنين بالقتال .

يقول الله سبحانه وتعالى : « **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله** »(١) .

وهذا الاذن ، ليس على اطلاقه بل هو مقيد بحالة الاعتداء .

والقرآن الكريم يقرر ذلك فيقول الله تعالى : « **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ، فان انتهوا فان الله غفور رحيم ، وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين** »(٢) .

ففى هذه الآيات أمر من الله سبحانه وتعالى للمسلمين بعدم العدوان على غيرهم ، وفيها أمر من الله لهم بقتال الذين يقاتلونهم من المشركين اذا بدأوهم بالعدوان وذلك دفاعا عن النفس

---

(١) الحج آية : ٣٩/٤٠ .
(٢) البقرة الآيات : ١٩١/١٩٣ .

والعقيدة • فدستور هذه الدعوة أنها لا تبدأ بعدوان ، وان كانت ترد العدوان ، عندما يفجؤها أو تتوقع حدوثه **« واما تخافن من قوم خيانة فانبــذ اليهم على ســـواء ان الله لا يحب الخائنين »**[1] •

أى يا محمد : ان توقعت من اليهود خيانـــة وتمردا بنقض عهدك معهم ، واذا ظهر لك تحللهم من مواثيقهم فلا حرج عليك أن تنبذ اليهم عهدهم ومواثيقهم حتى تقف ضدهم وتقطع عليهم كل طريق للخيانة والغدر للاضرار بمصالح الاسلام[2] •

وقد انحصر القتال فى بادىء الأمر بين المسلمين والمشركين من قريش ، وقد اقتضت حكمة الرسول ذلك حتى لا يفتح جبهتين أو يقاتل عدوين ، فهادن يهود المدينة ، وعقد معهم المواثيق ، وقد كانوا يتربصون به ، ويودون لو أخفق فى دعوته ، ولم يكتب له النجاح فيظل نفوذهم القديم وسطوتهم الغالبة ، ويعود من جديد تفرق كلمة جيرانهم من الأوس والخزرج •

وما ان استتب الأمر للنبى نوعا ما ، حتى التفت الى الشوكة الحادة التى تهدد جبهة المسلمين بين الحين والحين ، شوكة اليهود • وهى شوكة ليست هينة اذا عرف أن اليهود كانوا

---

(١) الأنفال آية : ٥٩ •
(٢) الحرب فى الاسلام ص ٢٠

ولا يزالون أخطر قوة ، وأنها كانت تفوق كل قـــوة ، فكثيرا ما نقضوا عهودهم مع النبى ودبروا الفتن والمؤامرات •

فأمر الله نبيه بقتال هذه الفئة الباغية • يقول الله تعالى :
« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورســـوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »[1] •

وليس الغرض من قبول الاسلام الجزية من أهل الكتاب ، تركهم على دينهم ، بل المقصود منها حقن دم الكافر وامهاله مدة رجاء أن يقف فى هذه المدة على محاسن الاسلام ، وقوة ادلته ، فينتقل من الكفر الى الايمان •

وهذا هو المقصود من شرع الجزية ، مع بقائهم على كفرهم الذى بلغ حد النهاية بقوله تعالى : « تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولدا وماينبغى للرحمن أن يتخذا ولدا »[2] •

ثم انه لمـــا انضمت فلول اليهـــود المغلوبة على أمرها الى القرشيين ومن والاهم من القبائل الأخرى ، فاذا النبى والمؤمنون

---

(١) التوبة آية : ٢٩ •
(٢) مريم آية : ٩٠/٩١ •

يؤذنون فى قتالهم جميعا « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين »[1] .

ويبسط الرسول الكريم هذا الاذن بقوله : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله) . رواه البخارى وغيره .

والدعوة الاسلامية ، كما تدعو الى الأهبة والاستعداد ، فانها تدعو الى السلام ، وعدم اثارة الحروب كما فى قوله تعالى: « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين »[2] وقوله : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله »[3].

نعم ان هذه القوة ، كانت السياج المنيع من تلك الحروب الصليبية التى شنت على العالم الإسلامى . ولو أننا تدبرنا هذه الآيات وما تهدف اليه من تكتل واتحاد وتماسك ويقظة تامة وحذر ، ما استطاع عدو أن ينفذ الينا أبدا .

والعداوة التى بيننا وبين اسرائيل دخلت التاريخ ، وأصبحت عداوة تاريخية تقليدية ، وعدونا هذا لن يكف عن استعمال الغدر

---

(١) التوبة آية : ٣٦ .
(٢) المتحنة آية ٨
(٣) الأنفال آية : ٦١ .

والخديعة ، ما دام فيه عرق ينبض ، فعلينا أن نكون دائما وأبدا فى أقصى حالات الاستعداد والرباط ، الذى كان شعارا من شعارات الجهاد فى الاسلام ، وجعله القرآن لارهاب العدو فىقول الله الكريم : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم »[1] .

وجعله فى سبيه الفلاح فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون »[2] .

وهذا يقتضينا أن نجهز أنفسنا لعملية صراع مستمر ودائم بيننا وبين عدو الله ، وعدونا وعدو الانسانية آخذين فى الاعتبار أن هذه ميادين شرف هيأتها لنا المقادير ، فالخير دائما وأبدا يبتلى بالشر ، والحق يبتلى بالباطل ، والفضيلة تبتلى بالرذيلة ثم تكون العاقبة للخير والحق والفضيلة .

هذا هو دستور الدعوة فى الجهاد والاستعداد للحرب ، وهو دستور الشرائع كلها .

وهو الدستور الذى عبر عنه الخليفة الأول أبو بكر الصديق

---

(١) الأنفال آية : ٦٠ .
(٢) آل عمران آية : ٢٠٠ .
(٣) قصة الحضارة لول ديورانت ترجمة الأستاذ بدران ص٣٧ .

فى أول خطبة له بعد توليه الخلافة اذ قال : (لايدع قوم الجهاد فى سبيل الله الا ضربهم الله بالذل) •

والسؤال الذى طالما تردد على الألسنة وهو ، لم ساد الاسلام وكيف انتشر ؟ هل انتشر بقوته الذاتية أم بقوة السيف القاتلة

وهذه القضية أثارها بعض المستشرقين •

ولنا أن نسأل هؤلاء ، وما الذى أوجد السيف ، ودعا الى استخدامه انه أن استخدم السيف فانما يستخدمه مضطرا لأن الظروف فرضت عليه ذلك الاسلوب •

وقد رد الفيلسوف ولز على هذه الفرية بقوله :

« ان الاسلام ساد ، لأنه كان خير نظام اجتماعى وسياسى استطاعت الأيام تقديمه ، وهو قد انتشر لأنه كان يجد فى كل مكان شعوبا بليدة سياسيا ، تسلب وتظلم وتخوف ، ولا تعلم أو تنظم ، كذلك وجد حكومات أنانية سقيمة لا اتصال بينها وبين شعوبها ، وكان أوسع وأحدث وأنظف فكرة سياسية اتخذت سمة النشاط الفعلى فى العالم حتى ذلك اليوم ، وكان يهب بنى الانسان نظاما أفضل من أى نظام آخر •

وكان النظام الرأسمالى والاسترقاق فى الامبراطورية

الرومانية ، والأدب والثقافة والتقاليد الاجتماعية فى أوربا ، وقد انحلت انحلالا تاما وانهارت قبل أن ينشأ الاسلام »[1] .

ولعل هذه الاجابة تكون خير مقنع لمن لصق بالاسلام هذه الدعوى الكاذبة .

المرحلة الثالثة للجهاد :

وتبدأ هذه المرحلة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم . وللكفار فيها حالان :

أحدها : أن يكونوا ببلادهم والمسلمون فى أمان منهم ، فالجهاد فرض كفاية لا فرض عين ، والا لتعطل المعاش ، وقد قال تعالى : « لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى »[2] .

فلو كان الجهاد فى هذه الحالة فرض عين لكان المتخلف عنه عاصيا مع أن الله سبحانه وعده الحسنى وهى الجنة ، والعاصى لا يوعد بها .

وقال تعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم[3] » فحثهم الله على

---

(١) الدعوة التحريرية الكبرى ص ١٤٦ .
(٢) النساء آية : ٩٥ .
(٣) التوبة آية : ١٢٢ .

أن تنفر طائفة للقتال وتمكث طائفة لتعليم الدين ، وهذا يدل على أن الجهاد فرض كفاية .

وأقل فروض الكفاية مرة فى السنة ، ويقوم مقام القتال بالفعل أن يشحن رئيس الدولة الاسلامية الثغور بالعدد والعدة .

والثغور هى الاماكن التى ينفذ منها العدو داخل أرضنا .

وثانيها . أن يدخل الكفار وهم الذين لا عهد لهم ولا أمان بلدة من بلاد الاسلام ، ومن لهم حق الدفاع والأمان أو قريبا منها على مسافة دون مسافة القصر .

والجهاد فى هذه الحالة فرض عين على الكبير والصغير والذكور والاناث ، وهذه الحالة تنطبق على الوضع الراهن بيننا وبين اسرائيل .

فليت الأمة الاسلامية تأخذ من دروس الهجرة عبرة وعظة فتهاجر من حب الدعة والاستسلام الى جهاد تستعيد به مكانتها التى تساقطت عبر التاريخ ولم تصغ الى اهابة المشفقين ولا صيحات المصلحين .

أيها المسلمون : اننا نعيش فى عصر لا يجدى فيه البكاء ولا تنفع الكلمة انه عصر الحديد والنار والعلم . فليكن منطق النار والحديد والعلم سلاح المجاهدين الذين يهاجرون بأمتهم الى مستقبل مشرق سعيد .

الدعــوة المحمــدية

الدعوة المحمدية كأى دعوة لها أوضاع ، وخطط ، وأصول ومناهج ، ولا ينهض بها الا كل فاهم ، لمبادئها ، متقن لأهدافها، وكان من ذوى الفطرة والاستعداد •

ولعل الفتور الذى يصيب أى دعوة صالحة ، أو الانحلال الذى يلحق بها فى فترة من الفترات ، انمـــا مرده الى افتقارها الى الداعية الحاذق لفن الدعوة العارف بطرائقه وأهدافه •

وقد توافرت فى الداعية الأول ، محمد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ صفات جعلته يرقى الى القمة من بين الدعاة ، فى الحصافة والمرونة وبعــد النظر ، فقد عرف كيف يختار الظروف المواتية لاعلان الدعوة •

فلم يجهر بها الا بعد أن أعد لها العدة ، وحسب ألف حساب للظروف المعوقة ، والأحداث الطارئة المفاجئة ، فاختار الرجال ، واصطفى الأعوان ، وتعرف مواطن الضعف ، ولم يتعجل النتائج، بل أخذ فى الاصلاح أولا ، وعمق جذور الايمان فى المجتمع رويدا رويدا •

فالثورة الفرنسية مثلا لم تقم ، ولم تعصف بالنظام القائم الا بعد أن أترعت الكأس وفاضت ، ومهد لها كتاب ثوريون لم يحفلوا بما ينتظرهم من سجن مظلم رهيب ، وآمن بمبادئها مصلحون أفذاذ ، أخذوا يدعون لهذه المبادىء سرا وعلانية حتى كان لها صداها ، وأثرها فى قلب نظام المجتمع رأسا على عقب .

وان كل دعوة ناجحة لها تاريخها الحافل بالجهاد والاستشهاد والتضحية والايمان والثبات .

وهكذا كانت الدعوة المحمدية ، انها لم تبلغ مابلغته من نجاح دفعة واحدة ، ولم تستطع أن تحظى بهذا الفتح المبين والذيوع العظيم الا بجهد جهيد ، وتضحيات هائلة ، من صاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام .

كان صلوات الله عليه ، يبذل جهده ، ويضنى نفسه ، ويعمل فكره ، ليؤدى رسالة الله الى الناس كافة ، كما أراد الله ، وكما أمره ربه .

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس »[1] بعد أن اختاره الله واصطفاه وأمده بروح من عنده ولم تبلغ الدعوة الى ماقدر لها من نجاح الا بعد أن مرت بمراحل ثلاث هى :

---

(1) المائدة آية : ٦٧ .

١ ــ مرحلة التحرير الفكرى •

٢ ــ مرحلة التحول السياسى •

٣ ــ مرحلة التغيير الاجتماعى •

أولا : مرحلة التحرير الفكرى :

وتبدأ هذه المرحلة ، ببداية الدعوة التى صـــدع بها محمد صلوات الله عليه فى بطحاء مكة وعلى مســـار ثلاثة عشر عاما لتحرير العقل من رواسب الجاهلية الأولى ، تلك الجاهلية التى ثملت فى عبادة الوثن من دون الله •

كانت عبادة الوثن فى المجتمـــع العربى النقيصـــة الأولى ، وعنوان الانحطاط فى العقلية ، وتأخر فى المدنية • ومن ثم فقد وجهت الدعوة كل اهتمامها فى مستهلها الى زعزعتها ، وهـــدم صرحها • وتهيئة النفوس • للدين الجديد •

ولكن العادات المتأصلة ، والعقائد المتوارثة لا تقتلع دفعـــة واحدة بل تحتاج الى مرحلة انتقالية لتحرير الفكر من عبـــادة الوثن •

فلا غرو اذا نشط القرشيون ، كلما رأوا خطرا بعيدا أو قريبا ، يهدد سلطانهم ، ويزيف آلهتهم •

وهذا ما حدث بالفعل عندما تناهت الى سمعهم دعوة محمد فحاولوا محاولات شتى لخنقها والكيد لهـا فى مجتمعهم وفى المجتمعات الأخرى .

ذلك أن ميراث الآباء والأجداد ، يمثل فى وجدانهم أقدس ألوان القداسة ، وأعظم ألوان الولاء ، وأعنف ألوان التعصب الاعمى .

ولم تبلغ الدعوة فى المرحلة الأولى كل أهدافها فلم يستجب لها الاعشرات من أهل مكة يسهل حصرهم ومع ذلك استطاعت أن تنال من الوثنية ، وأن تهز صورتها المترسبة فى أذهان أهـل مكة ومن حولها .

ويحدثنا عن ذلك الدكتـور هيكل فى كتابه « حياة محمـد » فيقول : بدأ أشد قريش خصومة ، يسألون أنفسهم .. أحقا أن محمدا يدعو الى الدين القيم ، وأن ما يعدهم وما ينذرهم هو الصحيح ؟

فقد خرج أبو سـفيان بن حرب ، وأبو جهل بن هشام ، والاخنس ابن تسريق ليلة ليستمعوا الى محمد وهو فى بيته ، فأخذ كل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل منهم لا يعلم بمكان صـاحبه ، وكان محمد ــ صـلوات الله عليه ــ يقوم الليل

الا قليلا ، يرتل القرآن فى هدوء وسكينة ، ويردد بصوته العذب آياته القدسية على أوتار سمعه وقلبه •

فلما كان الفجر تفرق المســتمعون عائدين الى منازلهم ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لاتعودوا • فلو رآكم بعض سفهائكم ، لاضعف ذلك من أمركم • ولنصر محمد عليكم •

فلما كانت الليلة الثانية ، شعر كل واحد منهم فى مثل هذا الموعد الذى ذهب فيه أمس ، كأن رجليه تحملانه من غير أن يستطيع امتناعا ليقضى ليله حيث قضاه أمس ، وليستمع الى محمد — صلوات الله عليه — يتلو كتاب ربه •

وتلاقوا عند عودتهم مطلع الفجر ، وتلاوموا من جديد ، فلم يحل تلاومهم دون الذهاب فى الليلة الثالثة • فلما أدركوا ما بهم لدعوة محمد من ضعف ، تعاهدوا ألا يعودوا لمثل فعلتهم ، وان ترك ماسمعوا من محمد فى نفوسهم أثرا جعلهم يتساءلون فيما بينهم عن الرأى فيما سمعوا ، وكلهم تضطرب نفسه ، ويخاف أن يضعف وهو سيد قومه ، فيضعف قومه ويتابعوا محمدا معــه ••

ومع هذا الميل ، وذلك الاحساس الذى يخالج نفوسهم وتنبض به قلوبهم نحو الدعوة المحمدية الا أنهم اصروا فى عنــاد على

الكفر بدافع التعصب الأعمى والحقد والحسد أن يكون محمد هو المرسل من بينهم ، وفيهم عظماء قريش وسادتها .

فكان الوليد بن المغيرة يقول : (أينزل الوحى على محمد ، وأترك ، وأنا كبير قريش وسيدها ، ويترك أبو مسعود عمرو ابن عمير الثقفى سيد ثقيف ونحن عظماء القريتين) .

وتحكى لنا كتب السيرة ، أن أبا جهل عمرو بن هشام قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فاطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى اذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان . قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ؟

والله لا نؤمن به أبدا ، ولا نصدقه .

يقول الدكتور هيكل :

وللحسد والتنازع فى هذه النفوس البدوية من عميق الاثر ما يخطىء الانسان ، اذا هو حاول الاغضاء عنه ، أو لم يقدره حق قدره .

ويكفى أن نذكر ما لهذه الشهوات على النفوس جميعا من سلطان ، لنقدر أن التخلص من أثرها ، يجب أن يسبقه تهذيب طويل يصقل الفؤاد ، ويرفع حكم العقل على نزعات الهوى ،

ويسمو بالعاطفة وبالروح الى مرقى يجعلك ترى الحقيقة على لسان خصمك بل عدوك هى الحقيقة على لسان حميمك ووليك ، وتؤمن بأنك أكثر غنى بملك الحقيقة منك بمال قارون ، وجاه الاسكندر ، وملك قيصر •

وهذه مكانة قل أن يصل اليها الا من هدى الله قلبه للحق ••

اذن ، فثلاثة عشر عاما فى أرض قاحلة ، ليست طويلة لغرس عقيدة جديدة ، واجتثاث عقائد شتى أرسلتها الجاهلية مئات السنين فى الاذهان حتى رسخت ، واستقرت ، وأصبحت ميراثا يحرص الناس عليه حرصهم على حياتهم[1] •

هذا أثر الدعوة عند سادة العرب ، وذوى السيادة فيهم ، فاذا انتقلنا الى طبقة الضعفاء أو المستضعفين من الارقاء أو الموالى لوجدنا أن هؤلاء كانوا أسرع الناس الى الايمان بالدين الجـــديد •

ولعل ذلك يرجع الى أنهم قد ألموا ببعض الديانات السماوية السابقة ، وهى بالطبع ديانات تدعو الى الوحدانية ، هذا من جهة • ومن جهة أخرى ، فقد نشأوا فى حضارات أرقى من

---

(١) الهجرة بداية مراحل الانطلاق للاستاذ محمد عبد الله السمان ص ١٥ •

الحياة التى كان يحياها العرب • ثم شاء طالعهم أن يقعوا فى قبضة هؤلاء السادة ، والسراة فى الجزيرة العربية •

فكانوا بحكم وضعهم ناقمين على الحياة الاجتماعية العربية ، ويودون لو تتغير الاحوال ، وتنقلب الاوضاع ، ليتيسر لهم أن يحيوا حياة أخرى ربما ترد اليهم بعض حريتهم وتمد لهم فى أسباب حياة وادعة •

وهؤلاء كانوا بطبعهم يستنكرون عبادة الاوثان ، ويتوقون الى حياة التوحيد • ومن ثم فقد كان لهم الفضل فى التمهيد لرسالة الاسلام •

فلا نعجب اذن أن يلتفوا حول رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ وأن يكونوا من السابقين الاولين الى الاسلام • بل ان التفافهم حوله كان رائعا وقويا • فسمعنا كثيرا عن الاضطهادات التى توالت عليهم من المشركين ومن سادتهم المتسلطين •

وروى التاريخ لنا عنهم أروع قصص البطولة ، وأعلى آيات الاستشهاد فى سبيل الدعوة المحمدية • ومن هنا أطلق عليهم فى التاريخ المستضعفون الاقوياء •

ثانيا : مرحلة التحول السياسى :

وهذه المرحـــلة تتمثل فى الهجـــرة الى يثرب[1] التى أبدت استعدادها لاستقبال الدعوة الجديدة بعد أن لفظتها أرض مكة، وضاقت بها ،وتنكرت لها فرمتها بكل منقصة ومثلبة ، وتوالى الاضطهاد على محمد وأتباعه ، واذاقوهم من العذاب ألوانا ، حتى كانت الهجرة الكبرى الى المدينة ، بعد أن دبروا قتل النبى رأس الدعوة حتى يحبطوها فى مهدها ، ويجتثوا أصولها فى مبدأ أمرها .

ولقد عرف النبى هذا الخطر على الدعوة ، فحاول جاهدا أن يخرج من هذا الضيق ، وأن ينأى بمصدقيه عن هذا الجو الخانق حتى لا تضمحل الدعوة وتندثر كما سبق أن ذكرنا .

وكانت وجهة نظره سديدة فى هذا الصدد ، اذ كان يبغى أن يخرج بدعوته الى مدينة أو أى مجتمع يستطيع حمايته من ناحية ويلقى فيه بذور دعوته من ناحية أخـــرى حتى تنمو وتستوى على سوقها .

---

(١) سميت باسم « يثرب » نسبة الى زعيم العماليق ، كما هو وارد فى النقوش السبئية وما رواه الجغرافيون القدماء ، وعرفت أيضا باسم طيبة والمدينة المنورة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما فى مكة حيث له أنصار ضعاف ، وأعداء أقوياء فان الدعوة لن تؤتى ثمارها وشيكا ولن يكتب لها نصر قريب •

وبدأ المسلمون يتسللون لواذا من مكة الى يثرب بتوجيه من الرسول — صلوات الله عليه — بعد أن مهد لهم ببيعة العقبة الاولى •

قال عبادة بن الصامت : كنت فيمن حضر العقبة الاولى وكنا اثنى عشر رجلا فبايعنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على أن لا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه فى معروف ثم قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فان وفيتم فلكم الجنة وان غشيتم من ذلك شيئا فأمركم الى الله ان شاء عذب وان شاء غفر •

فلما انصرف أهل المدينة الى بلدهم ، بعث معهم الرسول — صلى الله عليه وسلم — مصعب بن عمير ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الاسلام ويفقههم فى الدين • قال بن اسحاق: فأقام مصعب عند أسعد بن زرارة يدعو الى الاسلام حتى لم يبق دار من دور الانصار الا وفيها رجال ونساء مسلمون(١) •

وكان أول المهاجرين بعد بيعة العقبة الاولى أبو سلمة ،

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٩٥ •

لظرف خاص به ، كان قد قدم على رسول الله ــ صلوات الله عليه ــ مكة من أرض الحبشة ، فلما آذته قريش ، وبلغه اسلام من أسلم من الانصار ، خرج الى المدينة مهاجرا ، ولقى ما لقى من عنت قريش فى سبيل هجرته ، فقد رفض رجال بنى المغيرة رهط زوجه أم سلمة ، أن تصحبه معه ، كما رفض بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة أن يتركوا ابنه « سلمة » مع أمه ، وكان أن فرق بين أم سلمة وبين زوجها وابنها ، وقد لبثت سنة تخرج كل غداة فتجلس بالابطح تبكى ، الى أن رق لها رجل من بنى عمها ، وييسر لها أن تلحق بزوجها فى صحبة ابنها .

واستمرت الهجرة أكثر من عام،وذلك لحكمة اقتضتها السياسة المحمدية الرشيدة ، فلو أن الهجرة تمت دفعة واحدة جهرا .. لكان فى ذلك معنى التحدى لقريش ، التى لم تكن لترضى عن هذا التحدى أو تقف موقفا سلبيا منه ، والتى كان فى استطاعتها أن تقاوم هذا الاتجاه بكل ما تملك من أساليب البطش والارهاب ، أو على الأقل ، العنت والارهاق .

ولم يغب ذلك عن القرشيين بل فطنوا الى مبلغ الخطورة التى يتعرض لها مركزهم عندما سمعوا بخبر بيعة العقبة الكبرى التى كان هدفها الأول حماية الدعوة المحمدية ، فاجتمعوا على تدبير المؤامرة لقتله ، ولكن النبى فوت عليهم قصدهم فهاجر فى الليلة التى اعتزموا فيها قتله ، والحيلولة بينه وبين الهجرة الى المدينة.

وقد نجحت الخطة المحكمة على الرغم من احكام الرقابة على تحركات الرسول — صلوات الله عليه — من قريش التى أسقط فى أيديها ، واعترفت فى قرارة نفسها بأن هذه أول هزيمة منكرة لحقتها من محمد — عليه السلام — وباءت كل محاولاتها بالفشل الذريع فى القبض عليه واعادته الى مكة فلاذت بالصمت ، وراحت تفكر من جديد .

هاجر صاحب الدعوة الى المدينة ، فاتسعت الرقعة التى يعمل فيها ، ولم يعد يلقى المعارضة الشديدة لكل عمل يأتيه أو فعل يصدر عنه بل وجد الارض ممهدة ، صالحة للبذر . فى الجو الذى يناسبها ، والتربة الخصبة ليكون نباتها حسنا ، وزرعها يانعا « والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذى خبث لايخرج الا نكدا »[1] .

وقد أراد الله سبحانه وتعالى فى سابق علمه أن تكون الهجرة الكبرى التى تغيرت بها أقدار المسلمين ، ووضعت بها أحجار الاسس لدولة الاسلام الفتية فى أرض عربية ، والى شعب عربى . وهى ارادة متفقة مع سنن الله فى خلقه . فان احتمالات الوحدة فى العمل ، والتعاون بين الفئات المهاجرة وبين الشعب الجديد تكون أكثر توافرا حين تشد الفريقين اللغة المشتركة ، والعقلية المتقاربة ، والجغرافية الواحدة .

---

(١) الاعراف آية : ٥٨ .

فصـــدر الأمر الالهى ونزل به الوحى الى النبى — صلى الله عليه وسلم — أن اخرج من بلدك مكة الى حيث تجد حظا أوفر من النجاح وقوما أكثر استعدادا لتقبل رسالة الاسلام[1] •

وكان هذا التحول السياسى تحولا سلميا محضا،وكان ضروريا بهذا الاســلوب • فلم تكن الدعــوة الاســلامية تملك من القوة عددا وعدة لتواجه بها قريشا ، أو تقيم بها دولة داخل الدولة ، فقد مرت أيام عصيبة على الفئة المؤمنة فى مكة ، لم يكن يقيم بين ربوعها منها الا مستخف أو من هو فى جوار ، وحتى السنة العاشرة عندما عاد الرسول — صلوات الله عليه — من رحلته الى الطائف التى رده أهلها أسوأ رد ، دخل مكة فى جوار المطعم بن عدى ، ومهما حاول ذوو الاهــواء من المستشرقين وكتاب الغرب الذين تجرى الصليبية فى دمائهم ، أن يلصقوا بحركة الهجرة صفات الهرب والفرار والخوف فستظل رمزا على أسمى ألوان البطولة والمغامرة ، وستبقى صورة مشرقة لاعظم ألوان التضحية والفداء •

ان الهجرة لم تكن فرارا وهربا بقدر ما كانت أسلوبا واقعيا فى نشر الاسلام • وسبيلا عمليا لاعداد العدة والقوة حتى

---

(١) مجلة الوعي الاسلامى العدد ٨٥ السنة الثامنة ص ٤٧ •

لا تستمر الجاهلية بجبروتها وطغيانها ، تضع الأشواك والعقبات فى طريق التوحيد والوحدة والاخوة والمساواة والحرية ..

وهنا يسأل سائل : لماذا اختار النبى المدينة دون غيرها مقرا جديدا للاسلام ؟

والجواب السهل المقنع أن المدينة ، كانت متوسطة بين الشام ومصر والفرس وبعض بلاد العرب . فمن الميسور أن يتصل النبى — صلى الله عليه وسلم — بأهلها وينشر دينه بينهم ، ويرسل المبعوثين الى أهلها هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان المدينة كانت محطا للقوافل التجارية الغادية الى الشام والراجعة منها ، وكان النبى — صلى الله عليه وسلم — ينتهز أمثال هذه الفرصة ليبلغهم رسالة ربه ، كما أن بها الاوس والخزرج وهما من أقوى القبائل العربية ، وعلى جهودهم انتصر الاسلام بعد أن أزال الاسلام ما كان بينهم من احن وبغضاء[1] .

ثالثا : مرحلة التغيير الاجتماعى :

هذا التغيير الذى بدأه الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى مكة حيث قام بدعوته التحررية الكبرى التى أطلقت العقول

---

(١) منبر الاسلام السنة الرابعة والعشرون فى مقال فلسفة الهجرة المحمدية ص ٢٤٦ .

من اسارها ودفعتها للتأمل فى ملوكت السموات والأرض ، والتمكين للتوحيد والقضاء على الشرك ، ليكون الايمان هو الركيزة الأولى فى بناء الدولة الجديدة ، فالدولة هدف من أهم أهدافه ، وركن من أقوى الأركان التى يعتمد عليها ، وضرورة تقتضيها طبيعته .

ولم تكن أرض مكة بجوها الخانق ، وعنادها واصرارها على مقاومة الدعوة الجديدة الناشئة بالمكان المناسب الذى يكون صالحا للغرس والبناء . وليس لها من الأنصار والأتباع الا فئة قليلة مؤمنة على مسار ثلاثة عشر عاما ، وهم على قلتهم من ضعاف الناس الذين لا حول لهم ولا قوة الا من الايمان بالله والثقة فى وعده الذى لا يتخلف .

وقد وجد النبى خلاصه من هذا الضيق فى مبايعة الأوس والخزرج ، حتى يجد المتنفس لدعوته ، ويستطيع أن يفرض نظامه فى المدينة ، وأن يجعل منها المدينة الفاضلة ، المدينة القوية المتحدة التى تدفع عنه وعن دعوته .

وتعد المرحلة المدنية ، مرحلة بناء وتأسيس لاقامة مجتمع جديد ، له كل مقومات المجتمع المتكامل ، ثم اقامة الدولة الناشئة التى يتوافر لها كل عناصر الدولة الأساسية ، من أرض وشعب وقانون ، أما الأرض فهى يثرب ، وأما الشعب فهو الفئة

المؤمنة ، وأما القانون فهو كتاب الله وسنة رسوله — صلى الله عليه وسلم —[1] .

وبدأ الرسول منذ اللحظة الأولى من وصوله الى يثرب ، فى تكوين الدولة الاسلامية تكوينا واضحا لا لبس فيه ولا غموض :

فقد أقام حكومة فى يثرب بعد أن انتقل اليها ، حكومة لهـا جيشها وممثلوها ودعاتها ، ونظامها ودستورها ومجلس شوراها، وظل على رأس الحكومة حتى انتقل الى ربه ، وخلفه أبو بكر الصديق الذى لم يقبل أن تنحل عرا الجماعة ، وأن يتقلص ظل الحكومة الاسلامة ، فحارب المرتدين حتى أعادهم الى حظيرة الاسلام مؤمنين ، ثم دفع بجنده الى الشمال والى الشرق ، ليؤمنوا الدولة الجديدة ، ويفسحوا الطريق للدعوة الجديدة ، ولينتشر الاسلام من غير أن تعوقه سلطة الظلم والجور .

ان شن الحرب الاسلامية كما سبق كان لتأمين الدعوة من ناحية ونشرها من ناحية أخرى .

والجيوش الاسلامية لم تكن تحارب لتقيم دينها بالقوة بل لتزيل السلطان الجائر حتى تكون الحرية كاملة للرعايا والأفراد فى اعتناق الدين الذى يرغبون فيه[2] وبهذا نطقت الآية الكريمة

---

(١) انظر : الهجرة بداية مراحل التحول والانطلاق ص ٢١ .
(٢) عبقرية محمد ص ٥٢ .

« لا اكراه فى الدين » وكان التسامح الرائع الذى اتسم به الاسلام فى معاملة الكتابيين فى البلاد المفتوحة •

وبهذا فان الهجرة كانت نقطة تحول نحو الانطلاق •• هذا الانطلاق الذى كانت قاعدته البناء الاسلامى المتكامل ، الذى يرتكز على العقيدة ، ففرض الصوم والزكاة والحج ، ثم تتابع الوحى بالتشريعات المفصلة التى لابد منها لتنظيم حياة المسلمين ومعاملاتهم ومجتمعهم •

ولو أننا تتبعنا السور القرآنية الأولى بعد الهجرة ، وكذلك كلمات رسول الله عليه السلام ، لتبين لنا فى وضوح أن جوهر العقيدة فى المرحلة المكية والمدنية واحد ، الا أنه فى المدينة حدثت اضافات اقتضتها ظروف الدعوة وظروف أتباعها فى كلتا المرحلتين

ففى مكة كان المسلمون يتوارون عن الأنظار ، ويستخفون بدينهم خوفا من أذى المشركين •

فكانت الدعوة تلاقى عنتا وارهاقا وتحديا لا نظير له ، بينما فى المدينة تجد الأمن والاستقرار ، وتفتح القلوب والأذهان ، وهى فى الوقت نفسه كانت ترسى قواعدها ، وتقيم دولتها على تقوى الله • دولة قوامها اصلاح العقول والقلوب بتخليصها من شائبة الهوى والغفلة •

حسبنا أن نصغى الى تلك الكلمات المشرقة الربانية التى قالها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى أول عهده بالمدينة :

•• أما بعد ، أيها الناس •• فقدموا لأنفسكم •• تعلمن والله ليصعقن أحدكم ، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ، وآتيتك مالا وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يمينا وشمالا فلايرى شيئا ، ثم لينظرن قدامه فلايرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فان بها تجزى الحسنة عشر أمثالها •• الى سبعمائة ضعف[1] •

والمجتمع الجديد كان فى مسيس الحاجة الى مثل هذه التوجيهات الغالية ففيه المهاجرون وهم يمثلون الطبقة الفقيرة ، الذين تركوا ديارهم وأموالهم ، وفيه الأنصار وهم طبقة الأثرياء ، فكان لابد من هذا التوجيه الذى يحقق العدالة الاجتماعية ويحدث توازنا بين الطبقات •

أخرج ابن المنذر عن يزيد الأصم أن الانصار قالوا : يارسول الله : اقسم بيننا وبين اخواننا المهاجرين الأرض نصفين •

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير وسيرة ابن هشام رواية البيهقى •

قال : لا • ولكن تكفونهم المؤنة ، وتقاسمونهم الثمرة ، والأرض أرضكم ، قالوا : رضينا[1] •

وبهذا وجد المهاجرون فى مهجرهم الجديد أخوة لهم آووهم ونصروهم وقدموا لهم المال والمتاع فى ايثار لم يعرف التاريخ له مثيلا •

فلما كانت أموال بنى النضير التى غنمها الرسول بغير حرب ، قسمها على المهاجرين وحدهم دون الأنصار حتى يعوضهم بذلك عن بعض ما تركوه فى مكة وليحدث من وراء ذلك نوعا من التقارب المالى بين المسلمين جميعا فى المدينة ، غير أنه عليه السلام لم يشأ أن يفعل ذلك الا بعد أن يجمع الأنصار ويعرض عليهم ما يراه •

فدعاهم وأثنى عليهم وشكرهم على ما قدموا من البذل والايواء والنصرة ثم قال : ان أحببتم قسمت ما أفاء الله على من بنى النضير بينكم وبينهم ، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم ، وان أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم •

فأجاب سعد بنعبادة بقوله : بل تقسم بينالمهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا • ونادت الأنصار : رضينا وسلمنا يارسول

---

(١) أسباب النزول للسيوطى ج ٢ ص ١٠٠/١٠١ •

الله . فقال — صلى الله عليه وسلم — : اللهم ارحم الأنصار وأبنـاء الأنصـار .

انه موقف رائع نبيل ، وصورة حية مشرقة من صور الايمان والحب والايثار ، صورة تؤكد أن رابطة العقيـدة أقوى من رابطة الدم والنسب والموطن والجنس .

وقد سجل القرآن الكريم هذا الموقف فى سورة الحشر فى الآيتين الثانية والتاسعة بعد أن أورد قبلها قصة بنى النضير وما يجب فيما يفيئه الله على المسلمين من أموال بغير قتال .

فقال تعالى :

« للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصـاصة ، ومن يوق شح نفسـه فأولئـك هم المفلحون »(1) .

وفى لقاء آخر مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : ان أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى .. قد أفلح من

(1) انظر : الوعى الاسلامى العدد ٤٩ السنة الخامسة ص ٢١/٢٢ .

زينه فى قلبه •• وأدخله فى الاسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، انه أحسن الحديث وأبلغه •

أحبوا ما أحب الله •• وأحبوا الله من كل قلوبكم •• ولا تملوا كلام الله وذكره ، ولا تقس عنه قلوبكم •• فانه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى •

فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا •• واتقوه حق تقاته •• واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ان الله يغضب أن ينكث عهده) •

فهذه كلمات مشرقة •• تركز على مفهوم الحب ، وأنه ينبغى أن يكون وثيق الصلة بالله ، فاذا أحب المسلم فليحب ما أحبه الله ، وليكن حبه لله من كل قلبه ، وبعـــد ذلك عليه أن يقيم الحب بين الجميع بروح الله •

كما أن هذه الكلمات تؤكد الصلة بين المسلم وبين كتاب الله ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، انه دستور الأمة الاسلامية الذى ينظم حياتها ويهدى من اتبعه الى طريق الخير والرشاد • وبينت أيضا فى جلاء لا لبس فيه ولاغموض أن العمل الصالح مطلوبلبناء الأمم ، وأنه يدفع عجلةالاصلاح الى الامام فى ثقة وقوة ، فما ضيع الأمم غير الفراغ والخمول، وما قضى على الأفراد غير التكاســـل والتراخى ، وما هوى بالدعوات غير قيامها على النظريات الفارغة والأوهام الجامحة •

والاسلام ينكر الرهبانية كما قال عليه السلام (لا رهبانية فى الاسلام) • ولا يعرف الانقطاع الى العبادة وترك ماعداها من الالتزامات الانسانية •

ولهذا كرم العمل وأعلى من شأنه وحض عليه فقرنه دائما بالايمان فى مثل قوله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين » •

وقد علقت الدعوة كل هذه الأهمية على العمل الصالح ، لأن ثمارها لاتبدو الا به ، وعظمتها لاتتراءى بدونه ، فقد يؤمن المؤمن ثم يقف من الدعوة موقفا سلبيا ، فمثل هذا المؤمن غير جدير بالايمان الحق ، لأن الايمان يتطلب من المؤمن العمل على تحقيقه ، ونشر الدعوة التى آمن بها والمشاركة فيها ، وتبصير العاملين لهـا والقائمين عليها بما يراه لدعم الدعوة وما صادفه من صعاب ، أو لقيه من عذاب ليتردد صداها فى العالمين •

وهذه الايجابية ، هى التى أمر الله رسوله أن يبلغها الى المؤمنين بقوله : « وقل اعملوا فسـيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » •

ولقد استطاعت الدعوة الاسلامية أن تجند كل فرد فيها ، وكل مؤمن بها وأن تجعل المسلمين يدا واحدة وقوة واحدة ، تندفع بحرارة الايمان لخير هذه الأمة الناشئة •

التَّشْرِيعُ الإِسْلَامِى

حقا لقد كانت مرحلة ما بعد الهجرة ، هى مرحلة ارساء قواعد التشريع الاسلامى ، وهذه المرحلة تميزت بالاهتمام بالتشريع ، وما دامت هى البداية لتأسيس دولة ، وتكوين جماعة ، وانشاء قوة ، وتركيز عقيدة ، فلابد أن تكون مجالا لتشريع ينتظم سلوك الدولة والفرد معا ..

فقد كانت الفترة المكية فترة اعـداد النفوس لتلقى دعوة الاسلام وتعاليمها وأحكامها .

واذا كان المجتمع المكى فى الجاهلية مجتمع شرك وانحـلال ومفاسد ، فقد ناسب أن تكون السور المكية داعية الى توحيد الله عز وجل ، وترك عبادة الأصنام ، والايمان بالرسل والكتب والملائكة ، والبعث والحساب ، والجنة والنار ، وتوجيه العقول الى التدبر والتفكر فى خلق الله وآلائه ، والحث على القيم الانسانية والأخلاق الكريمة .

ولذا فقد كانت غالبية السـور المكية فيها آيات تبدأ بقوله عز وجل :

« يا أيها الناس .. يا بنى آدم.. » ، لاشعارهم بأنهم جميعا ينتسبون الى أب واحد،ليقودهم ذلك الى الايمان بالاله الواحد.

والتشريع فى الفترة المكية كان قاصرا على غرس بذور الايمان والتمكين للعقيدة فى القلوب .

ومن الوهم أن نعتقد أن العناية بالتشريع فى الفترة المدنية يعنى اهمال الجوانب الأخرى من البناء الاسلامى ، بل كانت بالعقيدة والشريعة معا .

فما من سورة مدنية الا وفيها العناية بالعقيدة والشريعة ، والذى دعا الى هذا الوهم ، أن التشريع فى الفترة المكية ، لم يكن له دور بارز فكانت الدعوة مهتمة بجانب العقيدة التى هى بمثابة الأساس للبناء ، وما دونها فرع لها ، وجانب من جوانبها ، حيث لم تكن قد قامت الدولة ، ولا أنشئت الجماعة[1] .

أما بعد الهجرة وفى الفترة المدنيـــة ، حيث قامت دولة ، وأنشئت جماعة ، فقد كان للتشريع مكانه البارز فى كل شئون الحياة ، بالنسبة للفرد والجماعة والدولة ..

وقد سلكت الدعوة سواء فى الفترة المكية أو المدنية سبيل التدرج فى الاصلاح حتى لا يضيق الناس بها بادىء الأمر ،

---

(١) الهجرة بداية مراحل التحول والانطلاق ص ٣١٩

وبخاصة فى التشريع • فالصوم لم يفرض دفعة واحدة ، وانما اكتفى أولا بصوم يوم واحد فى العام هو يوم عاشوراء الذى كان يصومه العرب فى جاهليتهم كما كان يفعل اليهود ، ثم تدرجت بهم الى صوم شهر بأكمله هو شهر رمضان ، فعلت ذلك حتى لا تشق على الناس فى أول عهدهم بالدعوة ، وحتى تتقبلها النفوس بعد أن تمنحها ثقتها •

ولما كان شرب الخمر فاشيا فى الجاهلية، متمكنا من كثير من القوم فتحريمه فجأة يشق عليهم ، وربما امتنعوا عن احتسائها فى العلن ، وعكفوا عليها فى الخفاء بل لعل أمراضا تنتابهم من حرمانهم منها فى غير تدرج أو تقدمة وقد يكون التحريم المفاجىء هو الحائل الوحيد بين ناس وبين اعتناقهم دعوة الاسلام ، وفى اعتناقهم له تعزيز لجانبه وأخذ بناصره •

أخرج البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت : (انما نزل أول مانزل من القرآن سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى اذا ثاب الناس الى الاسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول ما نزل : لا تشربوا الخمر لقالوا : لاندع الشرب أبدا ، ولو نزل: لاتزنوا ، لقالوا : لاندع الزنا)

فمن الحكمة أن يتدرج معهم فى تحريم ذلك ، وهذا ما حدث بالفعل فى تحريم الخمر ، بدأ أولا بانتقاص قدرها عند العرب مشيرا الى ما فيها من المنافع والمضار ، وموضحا أن كفة

الاثم بشربها ترجح كفة النفع منها فقال تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس ، واثمهما أكبر من نفعهما »[1] فالأسلوب الذى نزلت به الآية أسلوب ظنى الدلالة ، ولهذا فسره بعض الصحابة بأن فيه دلالة على تحريم الخمر ، وفسره بعض آخر بعدم دلالته ، وأقر النبى عليه السلام كلا على اجتهاده[2] ثم دخل فى طور التحريم فمنع المسلمين من الصلاة فى حال سكرهم : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى »[3] وانتهى الأمر بعد ذلك الى القطع بالتحريم فى السنة الثانية من الهجرة فقال تعالى : « انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه »[4].

ولعل الحكمة فى نزول كتاب الدعوة منجما انما مرجعه الى التدرج فى الاصلاح ، حتى لا تتشعب المسالك ويختلط الأمر على المؤمنين بالدعوة أو المدعوين الى اعتناقها ، فاذا كانت حادثة أو التبس الأمر فى واقعة أفتى الرسول فيها اما عن طريق الوحى أو العقل فكان رأيه دستورا يلتزم به كافة المسلمين[5] .

وعظمة التشريع الاسلامى كامنة فيه ، فهو منذ زهاء أربعة

---

(١) البقرة آية : ٢١٩ .
(٢) الوحى المحمدى للسيد محمد رشيد رضا ص ٢٣٧ .
(٣) النساء آية : ٤٣ .
(٤) المائدة آية : ٩٠ .
(٥) الدعوة التحريرية الكبرى ص ١٠٠ .

عشر قرنا لا يزال يتحدى ، وسيظل يتحدى الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فقد بلغ درجة النضـــج والكمال ، بحيث استوفى كل حاجيات الأمة الاسلامية ، بل والانسانية جمعاء • ونظم شئون الأفراد والجماعات والدول فى السلم والحرب ، والسياسة والاجتماع والاقتصاد •

وقد اعتمد التشريع الاسلامى على مصدرين أساسيين هما : القرآن والسنة النبوية ، والنصوص فيهمـــا جاءت فى الأعم الأغلب عامة ، وبخاصة نصوص القرآن الكريم • وقد استنبط منها الفقهاء الأحكام الفرعية والمسائل الجزئية •

واذا جد فى حيـــاة الناس جديد ، فان مرد هذا الجديد الى الأصول العامة ، اذا كان الغرض منه تحقيق مصلحة عامة ولم يجلب لهم ضررا •

فلا غرو أن كان تشريعا محكم الأساس ، وطيد البنيان ، كامل النظام، رائع المظهر، سامى الأغراض وافيا بحاجة الأفراد والجماعات ، عادلا من غير افراط وسهلا بلا تفريط ، أبديا ، صالحا لكل زمان ومكان ، محببا الى النفوس، كاشفا للناس عن نواحى الخير، وداعيا الى سعادة الدارين • وحسبك أن تعرف أسرار هذا الدين ، وادراك ميزاته أن البحث فى تعاليمه يهديك من غير جهد الى أنه أتى بما لم يكن سبق فى سالف الشرائع الأخرى من أحكام وما لم تتسع له الحياة قبل من رسوم وتعاليم •

علاقة الإسلام بالأديان السابقة

جاء الاسلام متمما للشرائع السابقة ومؤكدا لهما ومهيمنا عليه ، وحسبك أنه جعل الايمان بها جزءا من الايمان بعقيدة الاسلام فلايكون ايمان المسلم صحيحا الا اذا كان مشتملا على الايمان بالكتب السابقة . لقد دعت قبل الاسلام الى التوحيد ونبذ الشرك وعبادة الأوثان ، وأمرت بمكارم الأخلاق ، واشتملت على الايمان بالبعث والحشر والحساب .

ومن ثم فقد جاء الاسلام مصدقا لها ومعترفا بالدور الذى أدته للبشرية من هدى ورشاد ، غاية الأمر أنه صحح بعض الانحرافات التى وقع فيها الأحبار ، والرهبان حين تصدوا لتفسيرها وتأويلها .

قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان، ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله »[1] .

ومن أجل ذلك طالب الاسلام أتباعه بالايمان بالكتب المنزلة على الأنبياء السابقين .

قال تعالى :

« قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم

---

(1) التوبة آية : ٣٤ .

واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما آوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيــون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون »[1] .

فالأنبياء جميعا أولاد علات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحــد كما قال عليه الصلاة والسلام . وكل منهم أدى دورا هاما فى الاصلاح والهداية قال تعالى : « انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء » « .. وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين » « .. وأنزلنــا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنــا عليه »[2] .

فالأديان فى مجموعها وجدة واحدة فى جوهرها ، لأنها جاءت لخير البشرية وهدايتها الى الله وحده . « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصــينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »[3] .

ويمتاز الاسلام على هذه الشرائع بأنه استوعبها جميعا وزاد عليها ما أملاه عامل التطور والارتقاء .

---

(١) البقرة آية : ١٣٦ .
(٢) المائدة الآيات : ٤٠/٤٨ .
(٣) الشورى آية : ١٣ .

وقد وجد أهل الكتاب الذين تخلوا عن تعصبهم أن الدعـوة الجديدة هى الأعم والأغلب من الشرائع السابقة ، وأن هذا الدين يتمشى مع الفطرة وهذه الناحية فيه كانت عاملا كبيرا فى تخلى كثير من القبائل العربية فى دولتى الغساسنة والمناذرة فى بلاد اليمن عن اعتناقها للمسيحية واليهودية • وانضووا تحت لواء الاسلام •

ومن ثم فان الدعوة المحمدية هى النظام العالمى الانسانى الذى يدعو الى وحدة البشرية ، والتقائها على رأى واحـد ونهج واحد •

وان العالم الآن فى طريقه الى التكتل والاتحاد ان عاجلا أو آجلا ، فلم لا يفىء العالم الاسلامى الى نفسه ؟ ولم لايقوم على الوحدة فى عصر يدعو لها ويعمل فى سبيلها ؟

وان الدول الاسـلامية والشـعوب العربية لو اتحـدت وتماسكت وعملت للمستقبل البعيد لحسب لهـا العالم ألف حساب ، ولم يهضم حقوقها ، ولم يدنس كرامتها ، ولم ينتهب أرضها ، ولم يذل شعوبها •

وان الخطوات التى خطتها أمتنا على طريق النصر واسعة وموفقة تبشر بتحقيق الآمال والانتصار المؤزر ان شـاء الله على الصهيونية الغاشمة بفضل الوحدة العربية والالتفاف حول الراية الاسـلامية والله غالب على أمره ولكن أكثر النـاس لا يعلمون •

مطابع الاهرام التجارية
رقم الايداع بدار الكتب
١٧٧٥ / ١٩٧٥

الفهرس

